

المماليك العلماء □□ كيف جمع أمراء السيف بين الفقه والحديث والأدب



الجمعة 26 يونيو 2026 09:00 م

لم يكن المماليك مجرد قادة عسكريين خاضوا المعارك ضد الصليبيين والمغول، أو سلاطين تنافسوا على حكم مصر والشام طوال ما يقرب من ثلاثة قرون، كما استقرت صورتهم في الوعي التاريخي الشائع، بل كشفت المصادر الإسلامية عن وجه آخر أقل شهرة وأكثر إثارة، يتمثل في طبقة واسعة من "المماليك العلماء" الذين جمعوا بين السيف والقلم، وبرزوا في علوم الحديث والفقه والتاريخ والأدب، بل والموسيقى والفلك والهندسة، ليتروكوا إرثاً علمياً ضخماً ما زال يمثل مرجعاً أساسياً للباحثين حتى اليوم □

وتؤكد المصادر التاريخية أن النظام المملوكي لم يكن قائماً فقط على إعداد الجنود للميدان العسكري، وإنما اعتمد منظومة تربوية متكاملة تبدأ منذ وصول المملوك صغيراً إلى مصر، حيث يتلقى تعليماً دينياً صارماً يشمل حفظ القرآن الكريم، ودراسة الفقه والحديث واللغة العربية، إلى جانب التدريب المكثف على الفروسية والرمية وفنون القتال □

ويصف المؤرخ تقي الدين المقريزي هذا النظام التعليمي بأنه كان يبدأ بتعليم القرآن والكتابة وآداب الشريعة، قبل انتقال المملوك إلى التدريب العسكري، مؤكداً أن كثيراً من هؤلاء تخرجوا وهم "فقهاء وعلماء وأدباء وشعراء"، في مشهد يناقض الصورة التقليدية للمملوك باعتباره مجرد محارب □

دولة صنعت العلماء

بدأ الاعتماد على المماليك منذ العصر العباسي، لكنه بلغ ذروته في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب، قبل أن يؤسسوا دولتهم المستقلة بعد سقوط الدولة الأيوبية عام 1250م، لتصبح دولة المماليك إحدى أقوى القوى السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي □

وخلال تلك الحقبة لم يقتصر دورهم على حماية العالم الإسلامي من الحملات الصليبية، أو الانتصار على المغول في معركة عين جالوت وما تلاها، وإنما أسسوا أيضاً نهضة علمية واسعة، دعمتها المدارس والأوقاف والمكتبات، واستقطبت كبار العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي □

تعليم صارم وصناعة للنخب

تكشف المصادر التاريخية أن التربية المملوكية كانت تخضع لرقابة دقيقة، حيث يشرف على كل مملوك معلمون وفقهاء ومرّبون وقادة عسكريون، يتابعون تفاصيل حياته اليومية، ويحاسبونه على أي تقصير ديني أو أخلاقي أو عسكري □

ويرى المؤرخون أن هذا النظام كان السبب في ظهور شخصيات استطاعت الجمع بين القيادة العسكرية والتخصص العلمي، ليصبح بعضهم فقهاء ومحدثين وقضاة، بينما تولى آخرون مناصب سياسية رفيعة دون أن ينتعدوا عن مجالس العلم والتأليف □

من القلاع إلى حلقات الحديث

ومن أبرز النماذج التي تكشف هذه الظاهرة الأمير سيف الدين تغري برمش المؤيدي، الذي شغل منصب نائب قلعة القاهرة، أي المسؤول العسكري الأول عن أمن العاصمة، لكنه عُرف في الوقت نفسه باعتباره فقيهاً حنفياً ومحدثاً بارزاً، وتلمذ على كبار علماء عصره، وفي مقدمتهم الحافظ ابن حجر العسقلاني، وقرأ عليه كتب الحديث، كما تلقى العلم عن كبار القضاة والمحدثين □

ولم يكن تغري برمش حالة منفردة، إذ ظهر قبله وبعده عشرات الأمراء الذين جمعوا بين المناصب العسكرية والاشتغال بالعلوم الشرعية، ومن بينهم الأمير أرغون شاه الناصري، الذي بلغ مرتبة نائب السلطنة، لكنه اشتهر أيضاً بإجازته في الفقه الحنفي، واهتمامه بجمع الكتب وإنشاء المكتبات، حتى إنه أنفق آلاف الدنانير لشراء مكتبات كاملة

كما برز بدر الدين الحسن بن خاص بك، الذي وصفه مؤرخو عصره بأنه من كبار فقهاء الحنفية، مع كونه أحد قادة الحرس السلطاني، إضافة إلى الأمير علم الدين سنجر الصالحي، الذي أصبح مرجعاً في الحديث النبوي، وروى عنه كبار المحدثين

علاقة وثيقة بالعلماء

حرص سلاطين المماليك على توثيق علاقتهم بالعلماء، سواء من خلال تقريبهم إلى مجالس الحكم، أو إسناد مناصب القضاء والإفتاء والتدريس إليهم، فضلاً عن مشاركتهم في الحملات العسكرية

وتروي المصادر أن السلطان الظاهر بيبرس كان شديد الاحترام للإمام عز الدين بن عبد السلام، حتى قال بعد وفاته: "ما استقر ملكي إلا الآن"، في إشارة إلى المكانة التي كان يحظى بها العلماء داخل الدولة

كما كان السلاطين يعقدون مجالس دورية لقراءة صحيح البخاري داخل القلعة السلطانية، ويحضرها القضاة والفقهاء وكبار رجال الدولة، وتحولت هذه المجالس إلى تقليد استمر لعقود طويلة

نهضة المدارس والأوقاف

ولعبت الأوقاف دوراً محورياً في ازدهار الحياة العلمية، إذ أنشأ المماليك مئات المدارس والجوامع والمكتبات والمستشفيات، وخصصوا لها أوقافاً ضخمة ضمنت استمرار نشاطها العلمي

ووصف ابن خلدون كثرة الأوقاف في مصر المملوكية بأنها تجاوزت حدود الحصر، فيما أكد المقرئ أن الدولة أنشأت إدارات مستقلة للإشراف عليها، لضمان استمرار تمويل المؤسسات التعليمية والدينية

وقد ساهم ذلك في ظهور جيل كامل من كبار علماء الإسلام، الذين عاشوا في العصر المملوكي، مثل النووي، وابن تيمية، والذهبي، والمزي، وابن كثير، والسبكي، وابن القيم، وابن دقيق العيد، وابن حجر العسقلاني، وغيرهم

مؤرخون صنعوا الذاكرة الإسلامية

ويُعد التاريخ من أبرز العلوم التي برع فيها أبناء المماليك وأمرؤهم، إذ أنتجوا موسوعات لا تزال حتى اليوم من أهم المراجع لدراسة التاريخ الإسلامي

فقد ألف الأمير بيبرس المنصوري كتابيه الشهيرين "زبدة الفكرة" و"التحفة المملوكية"، بينما وضع أبو بكر الدواداري موسوعة "كنز الدرر"، وأنتج صلاح الدين الصفدي عشرات المؤلفات، أبرزها "الوافي بالوفيات".

كما برز ابن دقماق، وابن شاهين الظاهري، وابن إياس، الذي وثق السنوات الأخيرة لدولة المماليك وسقوطها أمام العثمانيين، إضافة إلى المؤرخ الكبير ابن تغري بردي، صاحب "النجوم الزاهرة"، الذي يعد من أعظم مؤرخي مصر الإسلامية

بين الأدب والموسيقى

ولم تتوقف إسهامات المماليك عند العلوم الشرعية والتاريخية، إذ عرف عن عدد منهم اهتمامهم بالشعر والأدب والموسيقى

فكان علي الغزولي من كبار الأدباء، بينما اشتهر ابن باباي صارم الدين بإجادته العزف على العود حتى وصفه معاصروه بأنه أعجوبة عصره في الموسيقى، كما جمع الأمير أشقتمر الناصري بين قيادة الجيوش وإتقان علوم الموسيقى، وهو ما يكشف جانباً حضارياً مختلفاً عن الصورة العسكرية التقليدية

مؤلفات في فنون الحرب

وفي المقابل، لم يهمل المماليك الجانب العسكري من الناحية العلمية، بل أنتجوا عدداً من أهم الكتب المتخصصة في فنون القتال، والرمية، والهندسة العسكرية، وإدارة الجيوش، والحروب البحرية

ومن أبرز هذه المؤلفات كتاب "تحفة المجاهدين في العمل بالميادين" للأمير لاجين الرماح، و"الأدلة الرسمية في التعابي الحربية" للأمير محمد بن منكلي، إضافة إلى مؤلفات متخصصة في صناعة السفن، والحصار، والمجانيق، والأسلحة، لتشكل معاً واحدة من أغنى المكتبات العسكرية في التاريخ الإسلامي.

إرث يتجاوز الصورة النمطية

تكشف تجربة "المماليك العلماء" أن دولة المماليك لم تكن مجرد قوة عسكرية حكمت بالسيف، بل كانت أيضاً دولة مؤسسات علمية وثقافية، نجحت في إنتاج نخبة من العلماء والقضاة والمؤرخين والمحدثين والأدباء الذين تركوا بصمة عميقة في الحضارة الإسلامية.

ويؤكد هذا الإرث أن النهضة المملوكية لم تُبنَ على الانتصارات العسكرية وحدها، بل قامت أيضاً على منظومة تعليمية متكاملة، ورعاية واسعة للعلم، واستثمار ضخم في المؤسسات الوقفية، وهو ما جعل العصر المملوكي واحداً من أكثر عصور التاريخ الإسلامي ثراءً في الإنتاج الفكري والمعرفي، وأسهم في حفظ جانب كبير من التراث الإسلامي عبر مؤلفات لا تزال تمثل مراجع أساسية حتى يومنا هذا.